قراءة في جدلية الخلط بين البلاغة العلمية والتحليل الإجرائي للنص "دراسة تحليلية نقدية"

د. أيمن محمد أبو زيد خيري (*)

يهدف هذا البحث إلى ترسيخ التفريق بين التطبيقات على البلاغة العلمية باجتزاء الشواهد من سياقاتها في النصوص، وتحليل النصوص بصفته عملية إجرائية تدخل فيها مباحث البلاغة كروافدَ أصيلةٍ. وقد عرض الباحث بعض مظاهر الخلط بين الدور الوظيفيِّ للبلاغة القاعدية، وتحليل النصوص بصفته عمليةً إجرائيةً من خلال تتبع بعض اتجاهات هذا الخلط منذ بدءِ الجدلِ حولَ ما شاع من صنيع السكاكيِّ في مستهل العصر الحديث ، ومن خلال سياقات جديدة برزت فيها صور من الخلط مع تجدد الحديث عن غياب نظرية لغوية عربية لتحليل النصوص مع بعض دعوات استبدال الأسلوبية والنصية بالبلاغة. اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وخلصت إلى نتائج من أهمها: إن اعتبار البعض للتطبيقات الجزئية على مباحث البلاغة العلمية تحليلا للنصوص كان وراء بعض اتجاهات القول بغياب نظرية لغوية عربية في تحليل النصوص. ويوصي الباحث بتدعيم الدرس البلاغي بالتطبيقات على النصوص الأدبية؛ لإبراز دور الأشكال البلاغية ـ بصفتها تقنيات أسلوبية ـ في التحليل الإجرائي للنصوص.

(*) أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها جامعة الملك خالد، المملكة العربية السُّعودية.

Abstract

This research entitled: Reading In The argument of the confusion between the scientific rhetoric and the procedural analysis. It aims to consolidate the differentiation between the applications to the scientific rhetoric, by fragmentation the evidences from its contexts, and text analysis as aproceedure process includes divisions of rhetoric, which is original tributaries. The reseacher shows some confusion appearances between the rhetoric rules and text analysis through tracking some directions of this confusion from the modern era, about what is common about the work of elsekaki and through new contexts emerged in the modern era , in the absence of Arabic language theory for text analysis. The study followed the descriptive analytical method. The most impotant results are: some consider partial applications for scientific rhetoric to analyze texts as a result of absence of an Arabic theory of texts analysis. The researcher recommends that the rhetoric lesson be supported by rhetorical applications on literary texts.

مقدمة:

الجدلُ حول النظرية العربية لتحليل النصوص كان مستمرًا في الماضي، ومستمر الآن وينبغي أن يستمرّ في المستقبل؛ ذلك لأنّ اللغة الأدبية بطبيعتها لغةٌ متجاوزة تنتج أبنية تركيبية جديدة في حركة لا تتوقف. وهذا يحتِّم الاستمرار في تطوير مناهج تحليلها، دون توقُّفٍ، ودون انغلاق في رؤية، أو إطار زمني أو مكاني، مع ضرورة المحافظة على المكتسبات التراثية المهمة في هذا الجانب بعيدًا عن التضخيم والتقزيم.

ذلك لأن الأسس الرئيسة للنظرية العربية لتحليل النصوص قد تمّ ترسيخ أبرز ملامحها التراثية من خلال المدرسة الأدبية في البلاغة، ما يوجب إعادة النظر حول الجدل الذي دار في هذا السياق في مستهل العصر الحديث عندما كانت القوى الحيّة في المجتمعات العربية والإسلامية تبحث عن أسباب النهوض؛ حيث تمخض البحث في أسباب جمود الأدب عند بعض الباحثين عن اتهام البلاغة العلمية بالتّسبُّب فيه من وجهين:

الأول قطعُ الطريق على تطور المدرسة الأدبية في البلاغة بالخروج عن صيغة عبد القاهر الجرجاني في نظريته للنظم القائمة على التحليل التذوقي. والثاني لإسهامها في جمود الأدب لانطلاق الأدباء من ترسُّم الأبنية البليغة ممثلة في الأشكال البلاغية وصورها وأخيلتها القديمة.

وكانت هذه النظرة مدخلا للهجوم على البلاغة العلمية وأشكالها الأدبية من منظور أنها تقنينات واجبة الأخذ بها من قبل المبدعين في الطريق إلى إنشاء نص بليغ. وجاء من هذا الباب أيضًا اتهامها بالإسهام في جمود النقد باستمرار النقاد الذين يترسمون خطى البلاغة العلمية في إطلاق أحكام القيمة على الأدب لتحكيمهم لمخرجات البلاغة العلمية كمقاييس لجمالية الأسلوب.

والحقُّ أن العلماء في المدرستين الأدبية والعلمية كانوا ينطلقون من وعيٍ كامل باتجاهي البحث البلاغي، يقول أبو هلال العسكري:" وليس الغرض من هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدتُ فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب"[١]. ونجد النص على أهمية وضع القواعد عند عبد القاهر

[١] الصناعتين، تحقيق علي البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ط٢. ص: ١٥.

الجرجاني رائد المدرسة الأدبية في قوله:" إنَّ لوضع القوانين وبيان التقسيم في كلِّ شيء، وتهيئة العبارة في الفروق، فائدة لا ينكرها المميز، ولا يخفى أن ذلك أتمّ للغرض وأشفى للنفس"[1].

فمضى أصحاب المدرسة الأدبية بنهجهم التذوقي في إرساء أسس نظرية البيان العربي في تحليل النصوص، وأصحاب الاتجاه العلمي في ضبط البلاغة باعتبارها علمًا. فأرسوا بذلك نهجًا تكامليا لا غنًى عنه للوصول إلى صيغة لنظرية متكاملة تقوم على أسس إجرائية في تحليل النصوص، تسندها قواعد منضبطة، وأبنية أسلوبية تشكل زادًا لا غنًى عنه لمحلل النصوص في حركته الإجرائية في النص وما حوله.

ولكل اتجاه خصائص مميزة له، حيث تمتاز المدرسة الأدبية باهتمامها بالإكثار من الشواهد والنماذج الأدبية، الشعرية والنثرية، والتنويع فيها من حيث الكمِّ بين البيت والبيتين من الشعر إلى القطعة الشعرية والرسالة الأدبية، والانطلاق في تحليلها تحليلا قائما على التذوق الجمالي للبيان[2]. وتمتاز المدرسة الكلامية بالاهتمام بالتحديد والتعريف والتقسيم[3] المنطقي، وكان غاية ذلك الضبط العلمي، وجاء في هذا السياق حرصهم على جعل التعريف جامعًا مانعًا[4]، واستعمالهم لألفاظ وأساليب الفلسفة والمنطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها.

---

[1] أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٤١٢هـ ـــ ١٩٩١م، ص: ١٥٧.

[2] انظر، البديع، عبد الله بن المعتز، تحقيق كراتشقوفسكي، لندن، ١٩٣٥م، ص ٣ ـــ ٤٧، في حديثه عن الاستعارة والتجنيس والمطابقة، وينظر كذلك كتاب (الصناعتين) في بابي التشبيه والاستعارة من ص: ٢٤٥ ـــ ٢٦٥.

[3] يقصد بالتقسيم كما جاء في الصناعتين: تقسيم الكلام قسمة مستوية، تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه، انظر ص: ١٧٠.

[4] انظر ، مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط١، ١٣٥٦هـ ـــ ١٩٣٧م، ص: ١٧٠.

وكانت هذه التقسيمات لكثرتها وقلة جدواها أحيانا[١] موضع نقد حتى من بعض رجال المدرسة الكلامية، فهذا سعد الدين التفتازاني يقول:" واعلم أنَّ أمثال هذه التقسيمات التي لا تتفرّع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى... فلله درّ الإمام عبد القاهر، فإنه لم يزد في هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللّطائف المورقة فيها"[٢].

هذا، وعلى الرغم من التباين الواضح بين نهج المدرستين؛ لم ينفصل هذان الاتجاهان انفصالا تاما، حيث ظلّت روح الاتجاه العلمي المنطقي حاضرة في مناهج أصحاب الاتجاه الأدبي، ولم يعزل أصحاب الاتجاه العلمي أنفسهم عن بعض ملامح الاتجاه الأدبي في سياق انشغالهم بضبط قواعد البلاغة[٣].

ونفي الأدبية عن البلاغة القاعدية فيه خلطٌ واضحٌ بين منهجين مختلفين، وهو الدرس اللغوي الذي ينطلق للتقعيد، والآخر الذي يؤسس للاستعمال سواء كان للإنشاء أو التلقي أو التقويم.

ملامح من الخلط قبل دعوات الاستبدال:

كان الخلط بين البلاغة العلمية التي هي تقنينٌ للعلم، والتحليل بصفته عملية إجرائية وراء الكثير من الجدل حول البلاغة العلمية، وهذا الخلط الذي حدث هو ما يفسِّر الهجوم على صنيع السّكاكي بعد الاقتصار من مشروعه الثلاثي على قسم واحد، وهو القسم الثالث من كتابه . فقد تجددت بعض الدعوات القديمة مرة أخرى في العصر الحديث في إطار دعوات تجديد البلاغة بتخليصها من صبغة المعيارية باتباع المنهج الوصفي.

---

[١] انظر مفتاح العلوم، ص: ١٥٨ـــــ ١٧٦، وانظر، الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط٥، ١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م، تقسيم الخطيب القزويني لطرفي التشبيه ووجه الشبه، ج١، ص: ٣٣٥ـــ ٣٧٧.

[٢] المطوّل على التلخيص، طبعة تركيا، ١٣٣٠هـــ، ص: ٣١٩.

[٣] تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، د. مهدي صالح السامرائي، المكتب الإسلامي بدمشق، ط١، ١٣٩٧هـــ ـــ ١٩٧٧م، ص: ١٤٢.

ولعلّ الخلط بين وظيفة المدرستين كان سببًا في بعض دعوات هجر المدرسة العلمية[1]. وينظر في هذا السياق للقول الآتي:" فلما جاءت عصور التقليد وفقدت الأصالة الأدبية أهمل الباحثون في قضايا النقد جوهر الذوق، ومنافذ التأثير الأدبي في النفوس، وراحوا يدرسون النقد في صورة أشكال بلاغية يناقشونها مناقشة نظرية"[2]

وممن اتهموا السكاكي بالتهمة نفسها الدكتور محمد زكي العشماوي، فهو يرى أنه قد حوَّل درس البلاغة من المنهج اللغوي الذوقي الذي تلتقي فيه فلسفة اللغة بفلسفة الفن إلى منهج شكلي مرتبط ارتباطاً كلياً بفساد اللغة المنطقي[3]. ونجد الرأي نفسه عند الدكتور شوقي ضيف، حيث يرى في السكاكي الرجل الذي تحجرت البلاغة على يديه بعد تحويله البلاغة إلى قوانين وقواعد تخلو من كل ما يمتع النفس بتسليط المنطق بأصوله ومناهجه الحادة عليها[4].

هكذا انحرفت دعوات التجديد مع جدليات معيارية البلاغة ووصفيتها عندما حدث الخلط بين البلاغة القاعدية كتقنين للبلاغة كعلم، وتحليل النصوص كعملية إجرائية. وبعد تلك الدعوات الأولى التي نالت من معيارية البلاغة والتي نتجت عنها تهم زخرفية الأشكال البلاغية؛ استمر النظر إلى البلاغة القاعدية باعتبارها مفسدةً للبلاغة.

إنَّ النظر إلى البلاغة القاعدية عند السكاكي في إطار حاجة العلم الذي يقتضي التفريق والتقسيم هو النظر الطبيعي، ولما كان التقسيم والتجريد أساسين لكل نشاط علمي وسمة من سماته؛ نحا علماؤنا الأوائل ذات المنحى في كل علوم اللغة، ووضعوا المصطلحات المبيّنة لأقسام الدرس اللغوي في كل فروع اللغة. وقد اكتسبت البلاغة بصنيع السكاكي ومن نحا نحوه صبغة العلم، لمناسبة

---

[1] انظر ، مناهج تجديد، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦١م، ص: ١٧٥، وفن القول، أمين الخولي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص: ١٨٩، ١٩٥، والنقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٢م، ص: ٣٢٣.

[2] من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٦هـ ـــ ١٩٤٧م، ص: ١.

[3] قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار الشروق، ط١، ١٩٩٤م، ص: ٣٢٤.

[4] انظر، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط٦، ١٩٨٣م، ص٢٨٨.

هذا النهج لروح العلم وكما يقول الدكتور تمام حسَّان: " الوصفية وسيلة البحث والمعيارية وسيلة الاستعمال والتعليم"[١]. ومع إقراره بهذه الحقيقة العلمية المهمة نجده يخلط بين وظيفتي المدرسة الأدبية والعلمية، حيث يرى في صنيع السكاكي قتلا لملكة التذوُّق، وأن ما قبل ذلك في تاريخ البلاغة أقرب إلى النقد الأدبي، وهو ما كان عند الجاحظ وابن المعتز وعبد القاهر الجرجاني[٢].

إنَّ اتخاذ الشواهد مادة للدرس البلاغي بدلاً عن النصوص قد تمَّ لغرض تحديد البلاغة كعلم، لمناسبة ذلك الإجراء للأغراض التعليمية من منظور اختصار العرض، وهذا التوجّه نحو النهج القاعدي لا يقوم دليلاً على انحراف البلاغة العربية عن المنهج الوصفي، وقد تمَّ الدرس التقعيدي نفسه على منهجٍ استقرائي وصفي. وقد بقيت المدرسة الأدبية حيّة عند ابن الأثير والعلوي وابن أبي الأصبع وغيرهم من المتأخرين، وقد كان السكاكي مدركا أن مدرك الإعجاز هو الذوق لا غير مما يشي بحضور الهدف التعليمي في تقعيده لا هدف الاستبدال.

وهذا التوجه هو ما عليه الثقات من باحثينا المعاصرين الذين يرون في نهج السكاكي خدمة جليلة لعلم البلاغة، كما كان ذلك رأي أسلافنا الذين لم يفت عليهم قط ملمح التفريق بين النظر للبلاغة كفن، دون الخلط بينه وبين مقتضيات تأطير البلاغة كعلم، يقول الدكتور عبد الرحيم محمد الهبيل:" البلاغة عند السكاكي ومن سبقه من العلماء لم تكن معيارية تقدِّم أحكاماً جاهزة، وإنما استقرائية للظواهر التعبيرية في سياقاتها المختلفة، واستخلاصاً لمواضعات التراكيب، وبذلك فلا حجة لمن يتهم البلاغة بالجزئية أو المعيارية[٣].

وهو القائل عن السكاكي:" استمدت البلاغة العربية على يديه قوةً وثباتاً أوهم في كثير من الأحيان بمعيارية البلاغة وجمودها"[٤].وهذا الاتجاه نجده عند

---

[١] اللغة بين الوصفية والمعيارية، عالم الكتب، القاهرة ص: ١٨٤.

[٢] انظر، الأصول: دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص: ٣١٠.

[٣] فلسفة الجمال في البلاغة العربية، ، الدار العربية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.ص: ٢٤٧.

[٤] المرجع نفسه، ص: ٢٥٤.

الدكتور شكري عياد، الذي يرى أن كتاب (مفتاح العلوم) يقدِّم أكمل بناء بلاغي عرفته الثقافة العربية[١].

ونجد رأيا مماثلا في إعادة الاعتبار لمخرجات البلاغة العلمية في التحليل كعملية إجرائية في حديث الدكتور محمد عبد المطلب:" ومن اللافت للنظر أن هذه الوسائل التعبيرية الموروثة أصبحت ـ بشكل أو آخر ـ إحدى مجالات الدراسة الأسلوبية الحديثة، لا باعتبارها موروثات مقدسة، وإنما باعتبارها إمكانات لغوية من الممكن رصدها وتحليل العلاقات بينها"[٢].

وقد دعا في مستهل كتابه إلى وضع الاعتبار للوسائل التعبيرية الموروثة، لا باعتبارها توصيات وتقنيات، بل باعتبارها طاقات لغوية داخل نسيج التعبير الأدبي[٣].

وصنيع السكاكي عند الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح هو" أقرب الصيغ إلى روح العلم، وأجدرها بأن تكون طرفاً في علاقة الحوار بين التراث البلاغي والأسلوبيات اللسانية المعاصرة"[٤]، ولاعتداده بصنيع السّكاكي يقول إنه يرى أن عيوب السكاكي عند منتقديه هي عين محاسنه في نظره[٥]. وبعد إيراد نماذج من آراء منتقديه ومناقشتها يقول:" على الرغم من ذلك كلّه فإنَّ لنا في المسألة رأياً يوشك أن يكون مناقضاً لما ذهبوا إليه من جميع الوجوه"[٦].

وبعد هذه الآراء المجملة يسوق تفصيلاً في سبب الدّفاع عن نهج السّكاكي حيث يقول:" وعندنا أنَّ (المفتاح) كان هو الخطوة الطبيعية المنتظرة بعد كتابي عبد القاهر(الدّلائل) و(الأسرار)، ومؤدى ذلك أنّ نظرية السكاكي في علم الأدب كانت ثمرة طبيعية لنظرية النظم، بيد أن السكاكي أضرّ به تلامذته وتابعوه باجتزائهم القسم الثالث من كتابه وقطعه عن سياقه، وفصمهم لعرى منظومته

---

[١] اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ ـــ ١٩٨٥م، ص: ٢٢٠.

[٢] البلاغة والأسلوبية البلاغة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ٢٠٠٨م، ص: ٣٥٣.

[٣] المرجع نفسه، ص: ١

[٤] في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م ، ص: ٣٠.

[٥] في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ، ص: ٣١.

[٦] المرجع نفسه، ص: ٥٠.

التحليلية، وإحلالهم ثلاثية المعاني والبيان والبديع محل الثلاثية الأصلية التي أقام عليها بناء كتابه، وهي ثلاثية الصرف والنحو وعلم المعاني التي تتكامل لتشكّل عنده علم الأدب"[١].

ويعود بعد ذلك لتأكيد رأيه التقريريّ الأول في وضع الاعتبار لصنيع السكاكي:" وقد أصبحت البلاغة بفضل ما أنجزه من عمل علماً منضبطاً، وصيغت قواعدها صياغة تهيئها لتكون وسيلة فنّيّة دقيقة، وشريكا فاعلا في الصياغة العلمية للدرس النقدي والأسلوبي"[٢].

هذا، ولا شكّ في أنه قد أنصف البلاغة العلمية في آرائه السابقة؛ لأنَّ جهود السكاكي في الرصد قد مهدت للدرس اللساني العربي الوقوف على عدد لا يستهان به من علامات الأدب. تلك العلامات التي شغلت الدرس اللساني الحديث، فطفق العاملون في مجاله من الغربيين ـ الذين طمسوا في عصور التيه الفلسفي الكثير من علامات الأدب عندهم ممثلة في أشكال البلاغة القديمة ـ يبحثون عن علامات جديدة من خلال الاستخدامات الأدبية الجديدة للغة لاتخاذها منطلقات للتّلَقِّي في سياق العملية الإجرائية في تحليل النصوص.

فالملاحظ هنا إنكار البعض للتطبيقات على مباحث البلاغة العلمية بحجة أن ذلك ليس عملا تحليليا للنصوص. ويدور بعضُ سجالات رفض نهج البلاغة العلمية انطلاقاً من هذا الملمح، وفي سياق هذا الجدل نقرأ:" إنَّ تطبيق قواعد البلاغة على النّصوص لا ينشئ تحليلاً نصّيّا، وإن أُتُّخِذَت بعضُ خطواتِه معرضاً لفنون البلاغة، يصبح النَّص المحلَّل شاهداً بلاغيا موسَّعاً"[٣].

ونجد صورة للخلط في القول الآتي:" إنَّ البلاغة في عصر العلم لا بدَّ أنَّ تعتمد على مرتكزاته دون مخالفة لشروطه وقوانيه، فعليها أنّ تتخلّى عن الطّابع المعياري التّقعيدي لتتّجه إلى وصف لغة الأدب وأشكالها... بهذا يكون انتهاء

---

[١] المرجع نفسه، ص:٦٥

[٢] المرجع نفسه، ص: ٦٦.

[٣] ترويض النّص، د. حاتم الصكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص: ١٨٣.

عصر المعيارية الجزئية هو المبدأ المؤسِّس لتوجهات البلاغة العلمية الجديدة الواصف لحركتها"[1].

ومن النصوص في الخلط بين البلاغة كعلم والتحليل كعملية إجرائية؛ القولُ الآتي في صنيع البلاغة المدرسية:" وقد رانت على مباحث البلاغة فيما بعد ظاهرة التقسيم الفرعي إلى أبواب، وتنافس البلاغيون في زيادة عددها مثلما تنافسوا في حشو تلك الأبواب بالأمثلة والمصطلحات البلاغية التي أفقرت الدرس البلاغي إلى ما هو محتاج إليه من الذوق والاعتناء بجماليات البيان"[2].

ومسلكُ الخلط هذا خطيرٌ جداً، وهو الثغرة التي نفذت منها تهم جزئية البلاغة مع علم النص، وذلك لتمرير فرية عدم معرفتنا للتحليل النصي.

ملامح من الخلط مع دعوات الاستبدال:

جدلية استبدال الأسلوبية بالبلاغة:

إنَّ الحديث عن موت البلاغة والدعوة إلى استبدال الأسلوبية بها دعوةٌ غربيةٌ خالصة، وقد نشأت عندهم في سياق عصور الاضطراب، لذلك يتحدثون باستمرار بأنَّ البلاغة الكلاسيكية لم تعد موجودة فعلياً كعلمٍ مستقلٍ منذ نهايات القرن التاسع عشر، ويرون أيضاً أنَّ حماية القوانين التّعليميّة لها هي التي عاقت دفنها نهائياً إن لم يمنع تعفّنها[3]، والكثير من دعاة التّجديد من الحداثيين يرون في البلاغة العربية ما يراه الغربيون في بلاغتهم.

وكعادة بعض باحثينا في تبنّي مثل هذه الدعوات دون الوقوف على سياقات الدعوة إلى موت البلاغة الكلاسيكية؛ استند البعض على تلك الدعاوى الغربية لتقديم الأسلوبية كعلمٍ جديد وريثٍ للبلاغة، بحجة افتقار بلاغتنا لمنهجٍ إجرائيٍّ في تحليل النصوص، نقرأ في هذا الإطار:" ذلك أن مصطلح الأسلوبية استخدم في بداية القرن الماضي للدلالة على الحدود الموجودة بين الأدب

---

[1] بلاغة الخطاب وعلم النّص، د. صلاح فضل، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ص: ١٠٢.

[2] النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، د. إبراهيم محمود خليل، دار الميسرة، عمان، الأردن، ط٢، ٢٠٠٧م، ص: ٧٦.

[3] انظر، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: ١٦٦.

واللسانيات، وهو المجال الذي كانت تحتله البلاغة القديمة، وبقي شاغراً بعد انحلالها"[١].

ودعوات تبني الأسلوبية في واقعنا العربي تغض الطرف عن إطار الدعوة الغربية إلى بلاغة جديدة، وهو أنها دعوة أتت ضمن ظروف وسياقات فكرية مضطربة سادت في المجتمع لقرون طويلة، والبلاغة الجديدة كمصطلح متحوّل عند الغربيين تقوم في بعض صورها على تجاوز الأشكال البلاغية الكلاسيكية في إطار تجاوز الفكر الكلاسيكي ضمن الثورة الشاملة على التراث[٢]، وذلك في محاولة لإيجاد فلسفة جمالٍ جديدة تمثل العصر الحديث للاستفادة مما أُنتج في المدارس اللسانية المختلفة، وادعاء الجدَّة في هذه البلاغة من خلفياتها المهمة؛ أنَّ من أهم سماتها أنها بلاغة تهتم بسياقات التداول.

والحديث عن موت البلاغة واستبدال الأسلوبية بها يندرج في إطار العقيدة الحداثية التي ترفض كل ما هو قديم وكل ما هو قانون، وكما يقول الدكتور عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني:" مبدأ(محو القبلية) ينسجم تماماً مع المنهج الذي وضعه الحداثيون لتدريس علم الأسلوب؛ لأنهم حاولوا فيه محو التراث العربي الإسلامي"[٣].

وانتهت دعوات إحلال الأسلوبية مكان البلاغة إلى الاعتراف بعدم قدرة الأسلوبية على القيام بهذا الدور، وقنع الغربيون بالاكتفاء بالدعوة إلى " إعادة بناء البلاغة باعتبارها منهجاً لتحليل النصوص"[٤].

وانتهى الجدل الفلسفي القائم على رفض القديم إلى الاعتراف بالأشكال البلاغية القديمة، وكان الاعتراف بصلاحية الأشكال القديمة بمثابة العودة إلى الفطرة التي بنيت في إطارها ضوابط إنشاء الكلام وتلقيه. حدث هذا الوعي في

---

[١] تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، د. عبد القادر شرشار ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦م، ص: ٣٦.

[٢] انظر، فرحان بدري الحربي، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م، ص: ١٨٢.

[٣] علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية، ، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص: ٧.

[٤] البلاغة والأسلوبية، هنري بليث، ترجمة محمد العمري، منشورات دار سال، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص: ١٦.

الغرب مع الاتجاهات التي رأت ضرورة العودة إلى المضمون، والاعتراف بوجوده، والتخلي عن المناهج الشكلية في دراسة الأدب. وقد تم الاعتراف بالقصدية في بعض سياقات عودة الوعي بعد الاعتراف بالمضمون ، فكان تعريف الأسلوب في هذا الإطار بأنه" كل شكل فردي مكتوب ذي قصدية"[1].

ومع وضوح هذه السّمة الشّكليّة في الأسلوبية كمنهج تحليلي، إلى جانب بروز الدعوات الغربية للتّخلّي عنها وإعلان موتها باعتبارها مجالاً حائراً بين المدارس اللّسانية، والانتقال إلى الشّعرية، ومن ثم النصية؛ استمرت عندنا دعوات تبنيها كمنهج علمي في تحليل النّصوص الأدبيّة، بدلا عن البلاغة القديمة، بلاغة الشاهد والمثال.

ويتوكّأ البعض على نفي المعياريّة عن الأسلوبيّة في الطّريق إلى إضفاء سمة العلميّة على نهجها في التّحليل، وذلك بدعوى أن المعياريّة هي سمة البلاغة القديمة التي تطلق الأحكام التقويميّة بالقبول أو بالرّفض، وأنَّ سمة الأسلوبيّة الحرص الشديد على تعليل الظّواهر الأسلوبيّة لمقاربة النّصوص بمنهجٍ علميّ وصفيّ مغاير لنهج البلاغة التقليديّة. وهذه الحركة الإجرائية في عمليةً تحليل النصوص نجدها في منهج التذوق الجمالي في التحليل الذي ترسخ في المدرسة الأدبية في البلاغة.

ويتضح هنا بجلاء الخلطُ بين ما هو ممارسة تطبيقيّة وغاية تعليميّة من جانب، وبين مراحل تطوّر العمليّة النقديّة عبر العصور، وقصر مسيرة النقد العربي على التّجارب الأولى التي كانت وقتها توافق مقتضيات الحاجة للنّقد.

ونقرأ في هذا السياق قول جان ماري كلينكنبرغ في سياق حصر جهد البلاغة في التحليل على رصد الظواهر الشكلية وبناء القول بموتها وضرورة استبدالها، يقول بعد حديث عن أدوات إجرائية للأسلوبية:" وهو ما سيكون أساساً في الدراسات الأسلوبية المعاصرة بعد اختفاء البلاغة، إذا انحسرت في محاولات إحصاء الصور الزخرفية في الكلام، ووضع القواعد التي تقاس ملكة النجاح وليس الإبداع عند الكاتب بموجبها، فأصبحت تعليمية في غايتها، معيارية في

[1] معايير تحليل الأسلوب، ميكائيل ريفاتير، ترجمة: حميد لحمداني، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، ص: ٩.

هيئتها"[١]. ويلاحظ هنا الخلط بين إجراءات البلاغة التعليمية والتحليل كعملية إجرائية.

فليس جديدا إذن الحديث مع الأسلوبيّة عن العودة لاعتبار النّصوص الأدبيّة نصوصاً لغويّة دالّة، والتّعامل معها عبر منهج التّحليل اللّغوي للنّص، فقد عرف تراث العربية الكثير من هذه الخطوات الإجرائية من خلال التذوق الجمالي الذي ترسّخ في سياق نظرية البيان العربي.

لذلك لا يستقيم البتة الحديث عن معرفتنا لهذا المسلك مع الأسلوبية، والإمعان في المضي في ترسيخ ادّعاءات مثل معرفتنا مع الأسلوبية دراسة الوحدات اللغوية بوصفها متضمنة سماتٍ دلالية، لأنها حسب زعمهم تهدف إلى " تمكين القارئ من إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكاً نقدياً مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظائفية"[٢]. فقد ترسخت في المدرسة الأدبية في البلاغة من خلال التذوق الجمالي دراسة الوحدات اللغوية بوصفها متضمنة سمات دلالية، مع إدراك عميق لغاياتها الوظائفية، ولم نعرف ذلك مع الأسلوبية.

وتحقيق موضوعية النقد ومن ثم علميته كان هدفا غربيّ المنشأ مع اتجاهات النقد الألسني، لذلك كان الادعاء مع الأسلوبية أنه تحليل لغوي موضوعه الأسلوب، وشرطه الموضوعية، وركيزته الألسنية. والعربية في رأينا لم تعرف الفصل بين الأدب واللسانيات؛ ذلك لأنَّ منهج النظر للنص في التراث العربي منهج راسخ لم يعرف الثنائيات المتعارضة، وغيرها من جدليات المناهج الشكلية في دراسة الأدب، التي انحرف التحليل في سياقاتها عن رعاية المعنى.

وهذا يجعلنا لا نتقبل القول بجدة اتجاه ياكبسون في أسلوبيته البنائية التي هدَّ بها الجدار الفاصل ـ كما يقولون ـ بين علم اللسانيات وعلم الأدب، ومحاضرته التي أقامها عام ١٩٦٠م بعنوان (اللسانيات والشعرية) التي بين فيها كيفية تقويم الخصوصيات الإبداعية عبر القوانين اللغوية[٣] لا يعد فتحاً نقدياً لا

---

[١] الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص: ٢٥.

[٢] المرجع نفسه، ص: ١٥.

[٣] انظر، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، د. عدنان حسين قاسم، مؤسسة علوم القرآن، الشارقة، ط١، ١٩٩٢م، ص: ٤٩.

جزور له في العربية ، ولا يمكن في السياق نفسه اعتبار دعوته لتجاوز ازدواجية الشكل والمحتوى فتحاً في الدرس النقدي، ولا نرى في هذه الأساسيات الفطرية في الدرس اللغوي عمقاً فيه بلورة لتصوُّر بلاغي جديد للشعر على الأقل في بيئتنا العربية والإسلامية، حتى ننخدع بدعوات الاستبدال.

ولا أدري أيضاً لماذا يلحّ البعض في الحديث عن تمهيد تودوروف للأسلوبية الأدبية بإشارته إلى أن مفهوم الشعرية هو تحليل الألفاظ من خلال البحث عن العلاقة التي تربطها بالتراكيب وبالسياق العام الذي ترد فيه، وعلاقة هذا السياق بالعالم الخارجي[1]، وكأننا لم نعهد في التراث العربي هذا النهج في التحليل إلا عند اتصالنا بالغربيين.

وبعض القائلين بقصور الثّقافة عن ميلاد علم أسلوب عربيٍّ أصيل يرجعون السبب إلى قصورٍ في رافدي الأسلوبية، الألسنيّة والجمال[2]، والحقُّ في رأينا مع القائلين بأنَّ" علم الأسلوب ذو نسب عريق عندنا؛ لأنَّ أصوله ترجع إلى علوم البلاغة، وثقافتنا تزدهي بتراث غني في علوم البلاغة"[3]. إنَّ وصف علم الأسلوب بأنه ولد من رحم اللّسانيات يضفي عليه طابع الجدّة، ومن ثمَّ يجد به البعض مبرِّراً للقول بعدم معرفة التراث العربي والإسلامي لعملية التحليل اللغوي للنص الأدبي، والدّراسات المنصفة لبلاغتنا العربية قد اتخذت منها منطلقاً للنظر في مخرجات الأسلوبية، وذلك للاعتقاد الواثق في أصالة البحث اللّغوي العربي؛ الأمر الذي يتيح له الإسهام الثر في تحليل الخطاب الأدبي.

إنّ الاتجاهات الموضوعيّة في التّعاطي مع هذا العلم لا تقول بالاستبدال، بل تدعو إلى الاستفادة من بعض اتجاهات البحث فيه، بعد استثمار الطاقات التحليلية الموجودة في نظرية البيان العربي. ووفق هذا الاتجاه نجد الدعوة إلى النظر لهذا العلم باعتباره " فرعا من فروع علوم البلاغة أو وجهاً من وجوهها، تمدّه ويمدّها، وتثريه ويثريها، وليس بلازم أن يكون بديلاً عنها أو وريثاً لا يقف

---

[1] المرجع نفسه، ص: ٣٥.

[2] انظر، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص: ٣.

[3] د. شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، ، دار العلوم للطّباعة والنشر، السعودية، ط٢، ١٩٨٢م، ص: ٧.

في ساحتها إلا بعد أن توارى ثرى قبرها كما هو الحال عند أمم أخرى ولغات أخرى"[١].

وفي سياق مثل هذا التّعاطي غالت بعض الآراء حين ذهبت إلى القول " إنَّ علم الأسلوب هو تسمية حديثة لعلم النّظم، ومحاولة التّفرقة بينهما لا تؤدي إلى كبير جدوى مهما قدّمنا من الحيل والتّحكمات"[٢].

ويرى الباحث أن رفض البلاغة وتبني فكرة الاستبدال القائمة على هدم القديم، وعدم بناء نظرية علمية أخرى نظرةٌ لا يمكن قبولها، ويرى الباحث أنَّ هذا الاتجاه في الرّفض حتى بلوغ حدِّ الدَّعوة إلى الاستبدال كان مسوِّغه الأكبر هو نقد البلاغة التّعليميَّة. فالأشكال البلاغية سمات أسلوبيّة شاخصة، والنقاد المنصفون لا يختلفون حول جدواها في الحركة الإجرائية لتحليل النصوص الأدبية.

جدلية استبدال النصية بالبلاغة:

برزت جدلية جزئية البلاغة العربية في مستهل العصر الحديث في إطار ادّعاء مشبوه بجزئية العقل العربي وقصوره في التفكير في الكليات، وذلك في سياق جدل تفكك القصيدة العربية. ومع ظهور علم النص تجدد الجدل القديم القائل بعجز البلاغة القديمة في تقديم إضاءات حول النص؛ لافتقار التحليل القائم على البلاغة القديمة لمنهج علمي في تحليل النصوص.

وبدأ البعض في تقديم النصية بديلا للبلاغة القديمة، وذلك في إطار التشكيك المستمرّ في قيمة الأشكال البلاغية في الكشف عن المعنى في إطاره النصي. كل ذلك لتدعيم فكرة الزخرفية والشكلية القديمة من خلال مصطلح ما بعد حداثيّ جديد هو النّصيّة، التي عادت في سياقها جدل جزئية البلاغة.

فعلم النص كما يقول الدكتور صلاح فضل " يقترب من الميدان الذي كان مخصصاً للبلاغة بحيث يرى العلماء أنه الممثل الحديث لها"[٣]، وقد تأهل لهذه

---

[١] دلالات التراكيب، د. محمد محمد أبو موسى ، دار التضامن، ط٢، ١٩٨٧م، ص: ١٩.

[٢] علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية، ص: ١٠٤.

[٣] بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: ٨.

المكانة:" لأنَّ الخطاب البلاغي في جميع الثقافات الحية يتجه إلى اكتساب صيغة كلية شاملة تغطي النص بأكمله من منظور علمي متحرك... تتجاوز الصبغة الجزئية التي غلبت عليه عندما كان يقف عند حدود الكلمة والحالة المفردة، ويحاول تحليلها بشكل مبتسر لا ينطلق من منظور شامل"[1].

و الخلط بين البلاغة العلمية وتحليل النصوص كعملية إجرائية واضحٌ في قوله:" إنه يتجه اليوم ليصبح طريقة في التناول التقني ومنهجاً للتحليل العلمي، دون الاعتماد على مصادرات مسبقة، ومعايير دائمة ... أي أنه كاشفٌ عن الخطاب الإبداعي"[2].

وكما جاء جدل زخرفية البلاغة في إطار الثورة على الأدب وقيمه وأغراضه القديمة؛ جاءت تهمة الجزئية كذلك امتداداً لتلك الثورة، تحت غطاء النصية كثورة شاملة اتخذت من تبدُّل مفهوم اللغة الأدبية مدخلاً للدعوة إلى اتباع بلاغة جديدة تناسب شكل الأدب في صورته الجديدة.

ونقرأ في إطار اتهام الأقدمين بعدم معرفة طبيعة الأدب واللغة الأدبية لقصور آلة البلاغة وجزئيتها قولَ الكاتب نفسه:" الأدب خطابٌ نصي كلِّي، وليس وحدات جزئية مشتتة كما تصوره الأقدمون، فلم يستطيعوا التعرُّف الحيوي على خواصه الحقيقية، ومن ثم فإن غطاءه البحثي لابدَّ أن يستوفي شروط الخطاب العلمي حتى يتسم بكفاءة احتوائه وقدرة تمثُّله. مما يجعله يكف في المقام الأول عن إصدار أحكام القيمة ليضع مكانها أحكام الواقع وقوانينه المتغيرة"[3].

فالاستفادة من مخرجات هذه العلوم الجديدة من شأنها إخراج البلاغة القديمة من الزخرفية والعبثية والجزئية، وذلك بجعل أشكالها صالحة لاختبار النصوص بإعطائها ديناميكية بنائية.

وفلسفة اللغة الكمية التي وُسِمَتْ بها الأشكال البلاغية للبيان والبديع هي التي أُتُخِذتْ مدخلاً لوصف تلك الأشكال بالجزئية، في ادعاءٍ واضح بمنافاتها لنهج الصور الحداثية التي لا تقوم على منهج العلاقات التجاورية التي تمثلها البلاغة التقليدية، نقرأ في هذا الإطار:" وتتحكم علاقة التجاور بأوضح معانيها

---

[1] بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص: ٦.
[2] بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: ٦ ــ ٧.
[3] المرجع نفسه، ص: ٧.

ليس في علاقة عناصر الصورة بعضها ببعض فحسب، وإنما في علاقة الصور بالصور الأخرى في البيت أو القصيدة، حيث تتراكم الصور مكونة إضافات محض كمية، وهذا هو الحال في القصيدة التقليدية، وفي معظم الفنون الكلاسيكية".[١]

وفكرة استبدال النصية بالبلاغة من منطلقاتها نفي معرفة التراث العربي الإسلامي لتحليل العمل الأدبي بصورة كلية. وهذا الزعم هو ما جعل البعض ينسب الإطار الزمني لمعرفتنا لدراسة الخطاب بوصفه كلاً موحّداً إلى ظهور مدرسة باريس السميائية في القرن العشرين[٢]. وهذا بالطبع يستلزم أن ينسب إليها معرفتنا لتجاوز عمليات التحليل لحدود الجملة إلى فضاء النص، ولا شكّ أنّ هذا محض ادّعاء، وقد رُدّ اعتبارُ النهج المتبع في التحليل في النظرية العربية لتحليل النصوص بتقرير الكثير من العلماء للحقيقة القائلة بأن" الاعتماد على بناء الجملة في دراسة النص وتفسيره لا محيد عنه ولا بديل له لمن يريد أن يقدِّم دراسة نصية مقنعة"[٣].

ويرى الباحث أن صنيع علمائنا في الماضي مع البلاغة في مرحلة التقعيد لا يمكن توصيفه في إطار تهمة القصور التي يُرْمَى بها علماؤنا الأفذاذ، فهم لم يهدفوا إلى الاقتصار في إطار الجملة والبيت من الشعر، نقول هذا لأنَّ اجتزاء الشواهد من سياقاتها في كتب البلاغة العلمية كانت ضرورة مرحلة اقتضتها عمليات عرض البلاغة كعلم بحشد أمثلتها، ولم يهدفوا إلى اتخاذ مواضع الأشكال البلاغية كمحاور بنائية دون النظر إليها من خلال سياق النص نتيجة لجهلهم لمفهوم السياق.

ومسلك الخلط هذا خطير جدا، وهو الثغرة التي نفذت منها تهم جزئية البلاغة مع علم النّص، وذلك لتمرير جدلية عدم معرفتنا للتحليل النصِّي، بحجة أن البلاغة التعليمية لم تطور علما جديدا من شأنه الإسهام في تحليل النصوص.

---

[١] انظر، في نظرية الأدب، د. سيد البحراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.، ص: ٨٦.

[٢] انظر، طيبولوجيا الخطابات البشرية، هاشم صالح ،مجلة الفكر العربي المعاصر، ع٤٤، ١٩٨٧م، ص: ٥٤.

[٣] بناء الجملة العربية، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص: ٣٠٧.

التذوق الجمالي ثمرة نظرية البيان العربي:

إنَّ اتّخاذ التَّذوق الجمالي منطلقاً لتحليل النُّصوص الأدبية منهجٌ راسِخٌ قدمه في تراث النّظرية اللُّغوية العربية، وقد كان ذلك اعترافاً واعياً بأثر الأشكال البلاغية وفاعليتها في بناء النصوص الأدبية. والتأسيس لهذا الاتجاه قديم في تراث العربية، وقد قارب النضج عند عبد القاهر الجرجاني، حيث جاء مشرقاً ومبشِّراً بمنهجٍ قويم في تحليل العمل الأدبي من خلال نظرية النظم، التي تستند على حركة إجرائية عمادها فحص طريقة بناء المعنى في الخطاب الأدبي، لمناسبة هذا الإجراء لعملية تلقِّي المعاني الكامنة في الخطاب الأدبي.

حيث حسم عبد القاهر الجرجاني جدل الشكل والدلالة بأن جعل المعنى ثمرة التفاعل الدلالي بين معاني الألفاظ ومعاني النحو، فهو القائل:" أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وتُرَتِّبُها على حسب ترتُّبِ المعاني في النَّفس، فهو إذن نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، ... حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وضع علَّة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح"[1].

وقد جاء في هذا السياق الاعتداد بأثر الأشكال البلاغية في تدعيم وتوجيه عملية تحليل النصوص الأدبية من خلال التركيز على بؤر إشعائها الدلالي، يقول عبد القاهر:" وجملة الأمر أنه ما من كلام كان فيه أمر زائد على مجرَّد إثبات المعنى للشيء إلا كان الغرض الخاص من الكلام والذي يقصد إليه ويزجى القول فيه"[2].

و كانت ثمرة نظرية النظم تجسيدها لخارطة البناء الدلالي المفضي إلى بلاغة الخطاب، وتمّ التأكيد في إطارها على ضرورة اندراج الأشكال البلاغية في سياق خدمة المعنى، يقول عبد القاهر الجرجاني:"... ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرِض بسبب

[1] دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٢م، ص:٤٩.

[2] المرجع نفسه، ص: ٢٨٠.

المعاني والأغراض التي يُوضَع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض"[١].

ومن الثابت المعلوم بالضرورة في تراث العربية أن قيمة الدقائق البلاغية في مواضعها في السياقات النصية في تشكيلها إضاءاتٍ مبهرة تشعُّ بالقفزات الدلالية في النص، الأمر الذي يضعها في رأس الأدوات التحليلية الأصيلة كأدوات إجرائية فاعلة في رصد حركة المعنى في النصوص ما دامت تأتي متسقة مع سمت عمود الشعر، باعتباره منظومة من القوانين الراعية لحسن التأتي في أخذ المعنى من واقع الحياة، والاجتهاد في استكمال أجزائه وتنسيق أطرافه لتجنُّب التعقيد وفساد المعنى.

ولا مجال لعبثية الإنشاء، فالذي يضع الشكل في غير موضعه الذي ينشده المعنى صانعٌ أخرق يلوي عنق الألفاظ لعدم اكتمال آلة البيان عنده. لذلك رفض مثل هذا المسلك في فلسفة البناء المقاصدي في العربية في العبارة التالية:" فأمّا أن تستكره الوصف وتروم أن تصوّره حيث لا يتصوّر فلا، لأنَّك تكون في ذلك بمنزلة الصّانع الأخرق، يضع في تأليفه وصوغه الشّكلَ بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه، حتى تخرج الصّورة مضطربة وتجيء فيها نتوّ ويكون للعين عنها من تفاوتها نبوّ"[٢].

وقد مهّد عبد القاهر السبيل للتحليل البياني للنصوص الأدبية من خلال رسم مراحل ثلاث في التعامل مع النّص الأدبي من خلال قوله:" لا بدّ لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلّة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل"[٣].

وهذا الجهد الكبير لعبد القاهر الجرجاني في ترسيخ مفهوم التحليل البياني هو الذي دفع الشيخ محمود محمد شاكر إلى القول بأنه كان يؤسِّس في

---

[١] المرجع نفسه، ص:٨٧.
[٢] أسرار البلاغة، ص:١٥١.
[٣] دلائل الإعجاز، ص: ٤١.

كتابيه لقواعد النظر في علم بلاغة الألسنة عامة، وبلاغة اللسان العربي خاصة[١].

ولأهمية التذوق الجمالي في عملية تحليل النصوص دعا عدد من علمائنا المعاصرين إلى الاهتمام به، وذلك للاستفادة من تتبع المعنى في النص من خلال فنون البلاغة في علومها الثلاثة باعتبارها وسائل تعبيرية موجهة لحركة المعنى في النص وموجهة للحركة الإجرائية في عملية تحليل النصوص[٢].

ولبيان أهمية الإسهام التراثي في بناء نظرية لغوية عربية في تحليل النصوص؛ تداعى الكثير من العلماء والباحثين لإبراز قيمة نظرية البيان العربي. ومن أبرز هؤلاء العلماء الدكتور محمد محمد أبو موسى، حيث يجتهد في وصل ما انقطع من جهد تراثي بعد كشاف الزمخشري وذلك من خلال عدد من أسفاره القيمة، وقد دعا ضمن مشروعه إلى ضرورة الاستفادة من نهج الدراسات القرآنية في التذوق الأدبي [٣].

ومدخله إلى التذوق الجمالي يعيد الاعتبار إلى الأشكال البلاغية في التحليل، لذلك يرى أنَّ "بحث مناسبات الصور اللغوية داخل القصيدة بحث جيد، واقترابك منه يعني اقترابك الحقيقي من الشعر، وإغفالك له يعني إغفالك لحقيقة من حقائق الشعر لا تغنيك غناءها كل منجزات(لكود ليفي شتراوس، وفلا دمير بروب، ورومان باكويش وغيرهم) ممن قام على (نفحاتهم) دراسات في الشعر الجاهلي، هي من الهزل الذي صار مذكوراً في حياتنا الأدبية"[٤].

وهو يرى أنَّ هذا النهج هو العاصم من فوضى العملية التحليلية، حيث يقول:" وهذا التحليل المبني على التذوق هو أصحّ المناهج وأقومها في دراسة البلاغة... وإذا تخلَّفت القدرة على التحليل والتفسير كانت ضرباً من التحكمات الشخصية تدفع بها إلى متاهات غير منضبطة"[٥].

---

[١] أسرار البلاغة، المقدمة، ص: ٣.

[٢] مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٨٨م، ص: ٤٦.

[٣] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، دار التضامن، القاهر، ط٢، ١٩٨٨م، ص: ٩.

[٤] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص: ٢٠.

[٥] المرجع نفسه، ص: ٣٧.

ويندرج صنيع الدكتور محمد محمد أبو موسى في كتابه (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) في إطار تطوير نظرية البيان العربي. وكذلك جهده القيِّم في كتابه (الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء)، إلى جانب كتبه الأخرى، مثل: (خصائص التراكيب)، و(ودلالات التراكيب)، و(التصوير البياني)، و(دراسة في البلاغة والشعر)، و (قراءة في الأدب القديم).

وإذا كان صنيع الزمخشري في كشافه استثمارا جيدا لآراء الجرجاني في نظريته للنظم؛ فإنَّ صنيع أبي موسى في كتابه الموسوم (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) هو محاولة لاستخلاص آليات التحليل الأدبي للنصوص المبني على تذوق النص بأدواته اللغوية والقرائن المساعدة على ذلك.

لذلك نرى أن رصده الخاص بالأدوات الإجرائية للتحليل الأدبي فيه حديثٌ ـ في فصول ـ عن النظم وعلم محاسن النظم وتجاوب النظم. ومن أدواته التحليلية التي عقد لها فصلاً، منهج الزمخشري في الوقوف على مفردات النص للإشارة إلى تمكنها في سياقها، وملاءمتها لصاحبتها من حيث مادتها وهيئتها جمعاً أو إفراداً وصيغتها فعلاً أو اسماً ومعاني، وأدوات الربط وحروف الجر.

وعقد فصلاً لأحوال صياغة الجملة بلاغياً، وجمع فيه مسائل التقديم، وصور الأمر والنهي والنفي والاستفهام، ومسائل أخرى متصلة بصياغة الجملة. وعقد فصلاً يشمل دراسة الجمل من حيث العبارة والفقرة والفواصل القرآنية والفصل والوصل، والالتفات وأسلوب التكرار والاختصار وغيرها.

وعقد فصلاً لما يتصل بالصور البيانية، درس فيه التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية والتعريض. وفصلاً عرض فيه مذهبه في البديع الذي أشار الزمخشري إلى قيمته البلاغية، حيث وصفه بأنه من صميم البلاغة القرآنية. وعقد ثلاثة فصول أخرى لدراسة أثر الكشاف على الدراسات البلاغية، كل ذلك مع إطلالة في المقدمة على جهود الدرس البلاغي قبل الكشاف.

وحُقَّ له بعد ذلك أن يقول عن منهج التذوق الجمالي في كشاف الزمخشري:" وهذه الدراسة ليست من البحوث التي نجهد أنفسنا فيها لنضعها في مكانها من تاريخ العلوم، وإنما لنضعها في مكانها من دراستنا الأدبية المعاصرة، فهي منهجٌ دقيق في دراسة النصوص الأدبية وتحليلها والبحث عن مكامن القوة والتأثير فيها. ولا أجد بحثاً يقاربه في تاريخ البلاغة والنقد العربي، وهذه حقيقة

أدرك أبعادها وأطمئن على شمولها وصدقها، فبلاغة عبد القاهر التي راقت كثيراً من الباحثين المحدثين أضعها بعد دراسة الزمخشري، وذلك لأنَّ التحليل والتفسير الذي هو صميم البحث وخلاصته في دراسة الزمخشري أشمل وأدق"[١].

ولعلّ من أبرز الكتب في مشروع أبي موسى لتطوير نظرية البيان العربي هو كتابه الموسوم (الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء)، حيث رسم في مقدمتي الكتاب إطارا نظريا بين فيه وجهته في تحليل النصوص الأدبية من خلال طرائق مستخلصة من الشعر [٢] ، ويرى ضرورة العودة إلى هذه الطرائق لأنها هي التي أثمرت كل مسائل البلاغة وكلّ أصول النقد، ومن شأنها أن تثمر المزيد من المسائل والأصول.

ويرى ضرورة عدم الاكتفاء بالقراءة على ضوء ما استخرجه علماؤنا من طرائق العربية في الإبانة عن المعاني[٣]، وذلك لاستخراج المزيد من أسرار صناعة ونقده[٤]، انطلاقا من فلسفة أن الشعر الجيد هو الذي يتضمّن أصول نقده.

وقد كان وراء اعتداد النُّقاد بمنهج التذوق الجمالي في التحليل إدراك عميق بقيمته، حيث يرى الكثير من النقاد أن هذا النهج الذي صاغه عبد القاهر الجرجاني هو الأقرب لما انتهى إليه الفكر الحديث، ومن هؤلاء الدكتور محمد زكي العشماوي الذي يرى أن الجرجاني قد أضاف إضافات حيّة في مجال النقد الأدبي، وهذا ما جعله يدعو إلى تضافر الجهود للعناية بمنهجه للاستفادة منه في درس الأدب على نحوٍ أكمل، يقول:" فالنقد القائم على إدراك العلاقات بين الألفاظ هو منهج علمي موضوعي؛ لأنَّ الناقد في هذه الحالة ليس مجرّد مستمتع بالأثر الفني، أو ناقل للإحساس الذي يشعر به، وإنما هو ناقد يعطيك الأسباب المعقولة لاستمتاعك، وذلك بما يحلله من عناصر، وما يكشفه من خصائص لا تخرج عما بين أيدينا من خصائص لغوية "[٥].

---

[١] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص: ٤٣.

[٢] الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، الصفحة: ب .

[٣] المرجع نفسه، مقدمة الطبعة الثانية، الصفحة: ز.

[٤] المرجع نفسه، مقدمة الطبعة الأولى، ص: ٧.

[٥] قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ١، القاهرة، دار الشروق، ط ، ١٩٩٤م، ص: ٣٧١ــ ٣٧٢.

وما ترسخ في نظرية البيان العربي من حركة إجرائية تتخذ من التحليل اللغوي منهجا يعتبره الناقد الدكتور عبد العزيز حمودة قريبا مما ترسخ مع الدرس اللغوي الحديث :" وليس من قبيل المبالغة القول بأن التحليل اللغوي هو العمود الفقري للبلاغة العربية. والمسافة بين بلاغة تعتمد على اللغة إلى ذلك الحد والدراسات اللغوية والتعامل اللغوي مع النصوص الأدبية في العصر الحديث لا يمكن أن تكون بعيدة"[١].

ونقرأ عند الدكتورة نجوى صابر قولها:" يمثل الاتجاه اللغوي قمة النضج في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، حيث يقوم على حسٍّ مرهف يدرك مواطن الجمال في النص الأدبي ذاته ... كذلك يعني بما للخصائص اللغوية من أثر في تفضيل نص على نص آخر..."[٢].

ونقرأ عند الدكتور إبراهيم محمود خليل قوله في السياق نفسه:" والنقد البلاغي في صميمه نقد لغوي، يستعين بمباحث النحو عندما يكون الأمر خاصا بالمعنى، ويستعين بالمعجم عندما يكون الأمر خاصاً بالبيان أو البديع... "[٣].

لكل ذلك كان ما يبحثه الناقد قديماً في الكلام هو أن يكون متناسقاً فيحكم عليه بالبلاغة؛ لأنَّ الكلام متى ما كان متلاحماً سليماً غير معيب ولا مستهجن حقق التلاحم المثالي الذي يبلغ به الوصف بالبيان أو البلاغة. وقد ترسخ منهج التذوق الجمالي للعمل الأدبي في سياق المدرسة الأدبية في البلاغة.

ولهذا الإسهام التراثي في تحليل النصوص قيمة لا يستهان بها، ويمكن البناء عليها من خلال الاستفادة من مخرجات الدرس اللغوي الحديث. فالقول بغياب نظرية لغوية عربية في تحليل النصوص قول متجاوز لكل تلك الجهود الواعية في التحليل. وكأن البلاغة التعليمية قد جبت ما قبلها، فلا معنى لقفز

---

[١] انظر، المرايا المقعرة، د. عبد العزيز حمودة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١مص: ٤٩١.

[٢] الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، د. نجوى صابر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ص: ٢١٩.

[٣] النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ص: ٧٥.

البعض إلى النسق المعرفي الذي تمثله البلاغة التعليمية واعتبار التطبيقات على شواهدها تحليلا قاصرا للنصوص.

وهذا التوجهُ من شأنه أن يعيد الاعتبار للبلاغة بالاهتمام بمباحثها القائمة، وإعادة النظر في طرائق تعليمها والاتجاهات التطبيقية عليها، مع السعي إلى التوجه الجاد للبحث عن النظرية اللغوية العربية لتحليل النصوص في إطار الإسهام التراثي والمعاصر في هذا السياق، بعيدا عن الانطلاق في القول بغيابها لقصور البلاغة.

خاتمة

كان الخلط بين التطبيقات على البلاغة العلمية التي هي تقنين للعلم، وتحليل النصوص بصفته عملية إجرائية وراء الكثير من الجدل حول البلاغة العلمية. وقد تتبع الباحثُ بعض تجليات هذا الخلط، ومن أبرزها الجدل الذي دار حول البلاغة عند المتأخرين واعتبارها خروجا عن الاتجاه الوصفي الذي ترسخ في المدرسة الأدبية في البلاغة، والقول بغياب نظرية لغوية عربية في تحليل النصوص مع دعوات استبدال الأسلوبية والنصية بالبلاغة، في تجاوز واضح لما ترسخ من نظرية البيان العربي التي كان للمدرسة الأدبية في البلاغة دور كبير في تَجْلِيَتِها.

ويلاحظ انحراف الاتجاهات الثلاثة بسبب انطلاقها من اعتبار البلاغة التعليمية وريثة للمدرسة الأدبية، على الرغم مما حدث من اجتزاءٍ لمشروع السكاكي في قسمه الثالث. هذا الاجتزاء الذي يحتم الاقتصار من مشروعه على جانب تقنين البلاغة بصفتها علما، وكان الطبيعي بعد هذا اعتماد ما تمّ تقنينها من أشكال بلاغية واستثمار فاعليتها في بناء النصوص الأدبية في عملية تحليل النصوص.

من أهم نتائج البحث:

١ـ نفي الأدبية عن البلاغة العلمية يعدُّ أول مظهر من مظاهر الخلط بين منهجين مختلفين في الدرس البلاغي.

٢ـ كان الخلط بين وظيفة المدرستين الأدبية والعلمية في الدرس البلاغي من أسباب بعض دعوات هجر البلاغة العلمية.

٣ـ بعض الاتجاهات القائلة بغياب نظرية لغوية عربية في تحليل النصوص تعتبرُ التطبيقات على مباحث البلاغة العلمية تحليلا للنصوص، ومن ثم تقول بقصور هذا التناول الجزئي في التحليل الكلي للنصوص.

٤ـ للتراث إسهام معتبر في النظرية العربية في تحليل النصوص، وتمثل نظرية البيان العربي الصورة المشرقة لذلك الإسهام الثر، ويمكن البناء عليها من خلال مخرجات الدرس اللغوي الحديث.

التوصيات:

١ـ تدعيم الدرس البلاغي بالتطبيقات على النصوص الأدبية؛ لإبراز دور الأشكال البلاغية ـ بصفتها تقنيات أسلوبية ـ في التحليل الإجرائي للنصوص.

٢ ـ الاهتمام بمشروع الدكتور محمد محمد أبو موسى في تطوير نظرية البيان العربي.

المصادر والمراجع:

١ـ الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، د. عدنان حسين قاسم، مؤسسة علوم القرآن الشارقة، ط١، ١٩٩٢م.

٢ـ اتجاهات البحث الأسلوبي، د. شكري عياد، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣ـ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١٤١٢،١هـ ـ ١٩٩١م.

٤ـ الأسلوبية في النقد العربي الحديث، فرحان بدري الحربي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

٥ـ الأصول: دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

٦ـ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط٥، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٧ـ البديع، عبد الله بن المعتز، تحقيق كراتشقوفسكي، لندن، ١٩٣٥م.

٨ـ البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، ٢٠٠٨م.

٩ـ البلاغة والأسلوبية، هنري بليث، ترجمة محمد العمري، منشورات دار سال، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.

١٠ـ البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٦، ١٩٨٣م.

١١ـ بلاغة الخطاب وعلم النّص، د. صلاح فضل، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت.

١٢ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، دار التضامن، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م.

١٣ـ بناء الجملة العربية، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٤ـ تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، د. مهدي صالح السامرائي، المكتب الإسلامي بدمشق، ط١، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

١٥ـ ترويض النّص، د. حاتم الصكر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

١٦ـ تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، د. عبد القادر شرشار ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦م.
١٧ـ دلالات التراكيب، د. محمد محمد أبو موسى ، دار التضامن، ط٢، ١٩٨٧م.
١٨ـ الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، د. نجوى صابر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.
١٩ـ الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.
٢٠ـ الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق علي البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ط٢. ص: ١٥.
٢١ـ علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية، د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
٢٢ـ علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
٢٣ـ فلسفة الجمال في البلاغة العربية، د. عبد الرحيم محمد أحمد الهبيل، الدار العربية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
٢٤ـ فن القول، أمين الخولي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.
٢٥ـ في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، د. سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
٢٦ـ في نظرية الأدب، د. سيد البحراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.
٢٧ـ قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، دار الشروق، ط١، ١٩٩٤م.
٢٨ـ اللغة بين الوصفية والمعيارية، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة.
٢٩ـ المرايا المقعرة، د. عبد العزيز حمودة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١م.
٣٠ـ المطوّل على التلخيص، سعد الدين التفتازاني، طبعة تركيا، ١٣٣٠هـ.
٣١ـ معايير تحليل الأسلوب، ميكائيل ريفاتير، ترجمة: حميد لحمداني، الدار البيضاء، ١٩٩٣م

٣٢ـ مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط١، ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.
٣٣ـ مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٨٨م.
٣٤ـ مناهج تجديد، أمين الخولي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.
٣٥ـ من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.
٣٦ـ النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، د. إبراهيم محمود خليل، دار الميسرة، عمان، الأردن، ط٢، ٢٠٠٧م.
٣٧ـ النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٢م.